مقدمة مستخلصة

تقر الدراسات الحضرية اليوم بأن المعالم الجغرافية والتخطيطية للمدينة تتحدد بجانبين أحدهما مكمل للآخر هما:

الجانب الوظيفي (Functinlizim): الذي بموجبه تبرز أهمية المدينة الاجتماعية والاقتصادية ضمن إطارها الإقليمي.

الجانب الشكلي (Morphlgizim): المتمثل في الكل المرئي للمدينة، أي مظهر المدينة الكلي (Townscape). وأصبح ينظر إلى هذين الجانبين على أنهما نتاج لتفاعل الإنسان الحضري مع عنصر المكان (Place) والفضاء (Space)، حيث بتفاعل الإنسان مع المكان تنتج الوظيفة (Function). وبتفاعل الإنسان مع الفضاء ينتج الشكل (Form). لتظهر مرفولوجية المدينة على أنها شكل المدينة المعبر عن وظائفها، ولذلك صارت الدراسات الحضرية تتبع طريقتين في دراسة المدن هما:

أولاً: الطريقة الوظيفية (Functional Approch): التي تركز على دراسة الوظائف التي تقوم بها المدن، وكيفية تصنيفها حسب وظائفها وسكانها وأحجامها وتباعدها وتحديد الأقاليم التي تقع تحت تأثيرها الاقتصادي والاجتماعي. وفي هذا إبراز للجانب الوظيفي الذي يشمل جانب من المعالم الجغرافية للمدن.

ثانياً: الطريقة التشكيلية (Morphological Approch): التي تركز على دراسة تركيب المدينة وعوامل نشوئها وشكلها الخارجي ونظام توزيع استعمالات الأرض فيها وطريقة تخطيطها ونظام الشوارع فيها، ودراسة العوامل التي تؤدي إلى توسعها، وفي هذا إبراز للجانب المرفولوجي للمدينة، المتضمن الأفكار والممارسات التخطيطية، وإعطاء الجانب الجغرافي الآخر للمدينة المتمثل في معالم شكلها الخارجي والكلى المرئي... وعلى الرغم من أن اتباع أي من هذين المنهجين في الدراسات المدنية بات ممكناً لغرض الفهم الموضوعي للمدينة، إلا أن الفصل بين الشكل والوظيفة لا يمكن أن يتم عملياً لفهم شكل ومحتوى المدينة في إطار المعالجة الشاملة، فمن جهة يجب النظر إلى كل المعالجات الوظيفية للمدينة (City Function) وأهميتها في التأثير في الخطة النهائية للمدينة، حيث إن تأثير الوظائف لا يتباين في أنحاء المدينة فحسب، بل وفي مراحل نموها المختلفة، ومن جهة أخرى فإن خطة المدينة (City Plan) ذاتها تولد وتطور وتقدم

وظائف معينة ضمن البنية الوظيفية والاجتماعية التي تظهر فيها لتخلص إلى حقيقة عضوية مهمة، وهي أن عناصر المظهر الخارجي للمدينة (Townscap) (الخطة، ونمط استعمالات الأرض، ونمط المباني، والشوارع) تعمل متفاعلة لكي تكون قادرة على تكوين الحقيقة الجغرافية للمدينة شكلاً ووظيفياً..

وإن الفكر التخطيطي (Planning Thought) في العصور السابقة، والعمل التخطيطي (Planning Prosses) اليوم، ما هو إلا ممارسات تمخضت عنها حقيقة المدينة (the fact of city) كوحدة جغرافية وتخطيطية، ولذا يمكن القول أن هذه الحقيقة ترافقت (بشكل أصيل) مع النشأة الأولى لظاهرة المدينة قبل خمسة آلاف عام عندما ظهرت مدينة أريدو - وأرو - والوركاء في السهل الجنوبي من العراق نحو 3200ق.م في البلاد التي عرفت بأرض سومر summer. وقد تأصلت في مدن الحضارات اللاحقة كالحضارة الفرعونية في مصر نحو 1500ق.م مثل مدينة منفس وتل العمارنة وكاهون، وقبلها في مدن حضارة وادي السند نحو 2500ق.م مثل مدينة موهنجودرا، وهاراب، ثم باقي الحضارات المتلاحقة في أصقاع مختلفة من أرجاء المعمورة مثل المدن الإغريقية والرومانية.

وإن هذه الحقيقة صارت تؤكدها أدبيات ومفاهيم التخطيط الحضري المعاصر (urban planning).

ومن هنا نحاول في هذا الكتاب تتبع هذه الحقيقة منذ نشأة أول المدن في جنوب العراق مؤكدين أصالة عناصرها الجغرافية والتخطيطية أولاً، وبيان مدى تطابقها مع حقيقة المدينة اليوم كوحدة اجتماعية واقتصادية وعمرانية ثانياً.

إذ لا ريب أن تاريخ أي ظاهرة يشكل جزءاً لا يتجزأ من كيانها الحاضر، ومؤشراً لما ستكون عليه في المستقبل، كما أن تفهم هذا التاريخ يكوِّن بعداً معرفياً له قيمته وإسهامه البارز في التفسير والتحليل والتخطيط. وإزاء هذه الحقيقة لا يمكن للنظريات المعاصرة وأدبيات الفكر التخطيطي الحضري والإقليمي التي سبقنا الغرب بصياغها أن تدّعي لنفسها السبق في معالجة الدراسات الحضرية والإقليمية مهما كانت درجة السلامة في طرحها، ومصداقية نجاحها في تلك المعالجات دون النظر والتفهم إلى طبيعة المدينة وعوامل نشوئها وحركتها في ضوء تطورها التاريخي، ومن ثم التفريق بين مهماتها الأصلية التي نشأت من أجلها والمهمات التي تولدت عن وجودها. ومثل تلك المحاولة تفترض تتبع المراحل التي نمت فيها ظاهرة المدينة بشكل عام، والعوامل التي أثرت في طبيعة هذا النمو، ذلك أنه إلى جانب ما يلقيه هذا التتبع التاريخي من أضواء على مسيرة التحضير والبناء الوظيفي المتغير للمدينة والمجتمع الحضري بوجه عام، فإنه يساعد في تفسير

العمليات المختلفة التي تزداد أهميتها يوماً بعد يوم لفهم حركة التطور التي تجعل المدينة تخرج من حدودها التقليدية والمخططة لتؤدي إلى نشوء كيانات حضرية لم يعرفها التاريخ من قبل. إن أيّ محاولة لاستعراض مثل هذا التتبع لتحقيق مثل هذا المهمات سوف لن تجعلنا نبتعد عن (تناول عوامل النشأة وخصائص الفكر التخطيطي) للمدن التي بدأت في وادي الرافدين، تلك البقعة التي اختصها الله تعالى لتكون أولى بقاع المعمورة التي احتضنت ظهور التجمعات الحضرية قبل أن تنتشر إلى أطراف الوطن العربي، ومنها إلى بقاع العالم، فكانت نشأتها أولى مراحل التكوين الحضري، حيث إن ما جرى لاحقاً في أصقاع مختلفة يشكل انعكاساً واضحاً لهذا التطور، إضافة إلى التعقيد الاجتماعي والاقتصادي والعمراني الذي جاء استجابة لتغيرات اجتماعية وثقافية وجغرافية في فترات تاريخية متعاقبة في تلك البقاع.

وإذا كان التكوين والنمو الحضري في أيّ مرحلة من مراحل التتبع التاريخي سوف تعود إلى معرفة المدينة من حيث أساسها الوظيفي، وطبيعة خصائص تنظيمها الاجتماعي والبيئي، وأساسها الاقتصادي، والعناصر التشكيلية لعمرانها، فإن ذلك سوف يدفع باستمرار للكشف عن تأثرها الواضح بمختلف العوامل التي حددت موقعها وعمقها الاقتصادي والعمراني، وبمجموعة الأفكار والقيم التي أشارت إلى تنظيمها اجتماعياً وبيئياً. وانطلاقاً من هذا التصور يمكن القول أن أي محاولة جادة لفهم طبيعة الحياة الحضرية المعاصرة يجب أن تعترف بالإطار التراكمي الواسع للخبرة الحضرية الحديثة. وهذا يعني أن تصبح محاولة تتبع أصالة المدينة ومراحل النمو الحضري مسألة جوهرية لفهم التغيرات الراهنة. وفي ذلك يقول لويس ممفورد "عندما نحاول أن نستكشف حقيقة الوضع الحالي للمدينة، يجب أن نمد أبصارنا إلى ما وراء الأفق التاريخي لتبين معالم منشآت أقدم عهداً، ومهمات أكثر بدائية، إذ من دون التغلغل بعيداً في أغوار الماضي لن نشعر أنه قد توفر لدينا ما يلزمنا من قدرة للوثوب بجرأة في مجاهيل المستقبل". واتفاقاً مع هذا التصور فإن النظر إلى بلاد ما بين النهرين كأول موطن للتشكيلات الحضرية الطلائعية التي مضى على نشوئها ما يزيد عن خمسة آلاف عام يوجب العودة إلى الجذور التاريخية لنشوء مثل هذه التشكيلات التي انحدرت من القرية العراقية (المستوطن الطبيعي الأول)، والتي أَلِفتها أرض الرافدين منذ ما يزيد على تسعة آلاف عام، وهذا يعني أن القرية العراقية قطعت ما يزيد على 3500 سنة منذ نشأتها في شمال وشمال شرق العراق قبل أن تتحول إلى مدينة شهد نشأتها السهل الجنوبي من أرض بلاد الرافدين في منطقة بلاد سومر، كيف لا وأرض العراق شهدت أقدم المواطن للتجمعات البشرية. فإذا كان الشك يساور البعض من أن آدم أبو البشرية قد نزل من السماء، فكان أول ما وطئت قدماه أرض العراق، فإن هذا الشك

يتبدد أمام حقيقة ثابتة في التاريخ، وهي أن حضارات الإنسان القديم قد وجدت من أرض العراق خير مهد لها بما سخت الطبيعة على العراق من سهول واسعة ومياه وافرة ومناخ معتدل مكَّن إنسان العراق من أن يكون قوة دافعة لبذل الجهد والإفادة مما قدمته تلك الطبيعة. فقد كشفت التنقيبات الأثرية أنه منذ إشراقات الحضارة البشرية كان العراق موطناً للإنسان القديم الذي لازم أرضه الجبلية في المناطق الشمالية عبر العصور الحجرية القديمة رغم قساوة بيئتها، إلا أنه استطاع عبر تلك العصور تطوير نفسه اقتصادياً واجتماعياً واستيطانياً وصولاً إلى ذلك الإنسان الذي يعمرها حالياً. وإذا كانت المتاحف تضم اليوم آثاراً تعود إلى ما وراء 50 ألف سنة كشاهد على الحياة البدائية لإنسان تلك الفترة، فإنه بات من المؤكد أن هذا الإنسان لم يخلد إلى ذلك الاتجاه البدائي، وإنما اندفع بفكر طموح وجهد دؤوب للإفادة من كل ما سخت به طبيعة العراق المعطاء لينتج حياة حضارية ظهرت جلياً منذ أوائل الألف الخامس ق.م بعدد من المستوطنات القروية في جنوب العراق، التي جاءت تواصلاً مع النشأة الأولى لقرى المنطقة الجبلية الشمالية من العراق، التي بدأت بقرية جرمو وحسونة نزولاً إلى قرية تل الصوان (عند سامراء حالياً) وجوخه مامى (في ديالى)، ثم قرية أور وأريدو والوركاء في السهل الجنوبي التي كان نضوجها وتطورها الأساس الذي انبثقت منه حضارة المدينة. بعد أن شهدت حضارة القرية تغيرات شاملة بدأت بزيادة السكان والمساحة المخصصة لاستعمالات تلك القرى التي اتخذت اتجاهاً تشكيلياً جديداً، وتبنى مجتمعها أهدافاً اقتصادية وعمرانية جديدة، نتجت عنها مجتمعات محلية متفاوتة تتركز سلطة إدارتها وتنظيم شؤونها بيد زعيم روحي تحول إلى ملك شامخ أضفت عليه سمات الألوهية سلطة سخرها بجرأة ومهارة في تنظيم جهود مجتمعة نحو السيطرة على الفيضانات التي كانت تهدد المستوطنة، وإصلاح أضرار العواصف، وخزن المياه وإنشاء شبكة عظيمة من القنوات المائية، وبناء المعابد والأسوار. حتى باتت جميع هذه المعالم الجوهرية التي أنتجها هذا التنظيم الأساس الذي تكونت منه المدينة، فما المعبد والبيت وصهريج الماء والطريق والسوق إلا عناصر كانت قد ظهرت في القرى، وظلت تنتظر قيام المدينة لتمضي قدماً في تكوينها الأكثر تعقيداً رغم نشوئها في المواضع نفسها التي قطنها في النصف الثاني من الألف الرابع من عرفوا بالسومريين نسبة إلى موطنهم، ليشكل استيطانهم في جنوب العراق بداية لنشوء المراكز الحضرية (المدن)، بعد أن ساهمت في نشأتها مجموعة من العوامل التي حولتها من قرى إلى مدن طلائعية، فكانت السمات الحضرية الأولى تعود إلى تاريخ هؤلاء الناس، وإن أصالة العناصر الحضرية للمدن باتت تنسب إليهم. وفي هذا يقول لويس

ممتورد "عندما تبلورت أنظمة المدينة، لم يدخل على الشكل المثالي أو النموذج الأصلي للمدينة إلا تعديلات قليلة إلى حد يثير الدهشة".

لذلك أظهرت التنقيبات التي جرت في العديد من المستوطنات الأثرية من بلاد وادي الرافدين، ولا سيما في إقليم السهل الجنوبي، أن المدينة وحياتها المدنية كانت مظهراً أصيلاً من مظاهر الحضارة العراقية القديمة، وليست حالة طارئة عليها اقتبسها من الأمم المجاورة لها، بل كانت عمليات التحول من سكن القرية إلى الاستيطان في المدينة ونشوء الحياة المدنية نتيجة حتمية فرضتها التطورات الاقتصادية والاجتماعية والمعتقدات الدينية والسياسية التي شهدها المجتمع العراقي القديم، ابتداءً من عصور ما قبل التاريخ إلى العصر شبه الكتابي، حيث حلت المدينة والحياة المدنية بدلاً من القرية وحياتها الريفية. ولأن عمليات التحول هذه كانت تسير بخطوات متأنية وفق أسس أوّلتها الظروف البيئية والاجتماعية والسياسية، فقد اكتسبت مخططات المدينة العراقية خصائص ومميزات أساسية التزمت بها وسارت على نهجها المدن اللاحقة، بغض النظر عن التبدلات السياسية وتعاقب السلالات الحاكمة، عدا بعض الاختلافات التي أملتها العوامل البيئية المحلية، وما فرضته الرغبات الشخصية لبعض الملوك والحكام، مما جعل المدينة العراقية الطلائعية دائماً وأبداً نموذجاً أصيلاً.

وإذ ينصب موضوع هذا الكتاب على دراسة عناصر الأصالة في الفكر التخطيطي للمستقرات البشرية الأولى في العراق القديم، ويهدف أيضاً إلى إظهار الجذور الفكرية الأساسية لنشأة وتطور المستقرات البشرية التي ظلت عناصرها الرافد السياسي الذي دعم مسيرة البناء والتطور الحضاري لقرون طويلة، وكانت نتاجاته المادية والفكرية الأسس والمرتكزات التي أظهرت للحياة أولى المستوطنات البشرية الدائمة (القرى)، التي تطورت إلى مدن مثلت أولى الأشكال الحضرية في العالم، والتي تكاملت ولادتها بمراحل تطورية حقيقية نابعة من الحاجة الفعلية للإنسان، مكنته من تفسير العلميات المختلفة للبناء الوظيفي، حيث غدت المدينة تعكس في أساسها الوظيفي وفي طبيعة وخصائص تنظيمها الاجتماعي والاقتصادي والعمراني طبيعة المراحل الفكرية السائدة، وبالتالي إمكانية إعطاء التفسيرات للعمليات المختلفة لفهم ظاهرة المدينة تاريخياً بما يسهم في بناء الأبعاد المعرفية التي لها أهميتها في تفسير وتحليل الفكر التخطيطي للمراكز الحضرية الحديثة، إذ إن الفهم التاريخي للمدن القديمة يشكل جزءاً لا يتجزأ من كيان المدن المعاصرة، بل ومؤشراً لما يمكن أن تكون عليه المدن. وفي هذا الصدد يقول لويس ممفرود:

"فالمدينة تجمع بين الماضي والحاضر والمستقبل عن طريق مبانيها ومنشآتها العامة القادرة على البقاء، وعن طريق المظاهر الرمزية والتقليدية

الأوفر قدرة على البقاء. ففي المناطق التاريخية للمدينة تتضافر العصور ويتحدى بعضها البعض". ولما كانت المنشآت المدنية تبقى بعد زوال الأغراض والوظائف التي أعطتها من الأصل، فإن المدينة تبقى تحتفظ أحياناً للمستقبل بآراء كانت قد فرضتها الأجيال السابقة، لذلك ومن أجل إظهار عناصر الأصالة الفكرية والمادية في نشأة المدينة واستمرارها، جاء هذا الكتاب في خمسة فصول هي:

الفصل الأول: القرية أصل المدينة العراقية الأولى

يتناول نشأة وتطور المستوطنات البشرية في العراق القديم في الفترة الممتدة بين خروج الإنسان من الكهف (الذي كان يمثل الملجأ الطبيعي له) وصولاً إلى استيطانه في القرى الزراعية الناضجة التي قادت إلى طلائع المدن. ولذلك جاء هذا الفصل تحت ثلاثة بنود أساسية هي:

عصور ما قبل التاريخ وأثرها في نشأة المستقرات البشرية الأولى في العراق القديم (نشأة القرى الزراعية):

وقد اعتمدت فقرات هذه العصور حسب اتفاق آراء معظم المؤرخين وعلماء الآثار من أجل تغطية تاريخية شاملة لجذور الخصائص الاقتصادية والاجتماعية التي سخرتها العوامل البيئية عبر تلك العصور، وأثرت بشكل مباشر في تطور ظاهرة الاستيطان وفي حياة الإنسان الاقتصادية. ويأتي هذا الاستطراد لفترة سابقة ومبكرة جداً لظاهرة القرى الزراعية من أجل الأخذ بالكيفية التي أثرت بها العوامل البيئية كعنصر ثابت للتحكم بظاهرة الاستيطان وأشكالها في العراق القديم، إضافة إلى العوامل المتغيرة الأخرى التي عبرت عما يعرف اليوم بالفكر التخطيطي.

خصائص وتركيب المستقرات البشرية الأولى:

التي سبقت عصر التحضر منذ غادر الإنسان حياة الملاجئ والكهوف، واتخذ المواقع المكشوفة في المنطقة الشمالية الشرقية كمرحلة انتقالية قبل الاستيطان في القرى الزراعية الأولى التي استمر وجودها في المنطقة ما يزيد على ألفي عام، إذ بدأت طلائعها بقرية جرمو حتى قرية حسونة قبل أن ينحدر السكان إلى مناطق أخرى خارج حدود المنطقة الشمالية نتيجة زيادة عدد القرى

وتنوع أنماطها وخصائصها الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية، لتنتقل من حالة الضعف في التماسك الاجتماعي إلى الألفة والتعاون، ومن الانغلاق الاقتصادي المكتفي ذاتياً إلى الاقتصاد المنفتح، ومن الاستيطان في بيوت دائرية محدودة التوسع إلى بيوت متعددة الفضاءات ذات أشكال مربعة ومستطيلة، حتى إذا ما انتقل السكان إلى قرى المنطقة الوسطى نقلوا تلك الخصائص إلى مستوطناتهم بعد أن أدخلوا عليها جملة من التغيرات شملت عمارتها السكنية ومرافقها الأخرى واقتصادها، حتى إذا ما وصل الاستيطان في بداية الألف الخامس إلى منطقة السهل الجنوبي عند منطقة بلاد سومر كانت القرى الجنوبية، أريدو، أور، الوركاء وغيرها قد نضجت خصائصها، وأثرت بشكل نهائي في تركيبها وبنيتها الوظيفية التي اتضحت في مخططاتها التي عكست العناصر الوظيفية للقرية العراقية الناضجة.

العناصر الوظيفية وأثرها في شكل وتركيب قرى الجنوب العراقي:

ويتضمن دور العناصر التخطيطية في تركيب القرية وقدرتها على أداء مهماتها الوظيفية، وبالتالي تحليل البيئة الوظيفية للقرية العراقية الأولى التي تعكس الفكر التخطيطي لعناصر البناء الوظيفي فيها.

الفصل الثاني: المدن السومرية - النشأة والخصائص:

يتناول دراسة تحليلية للعوامل التاريخية التي ساهمت في نشوء المدن السومرية الطلائعية التي انحدرت أصلاً عن القرى الجنوبية الناضجة مثل أريدو، أور، الوركاء. ثم الكيفية التي لعبتها تلك العوامل في صيرورة شكل وتركيب المدينة التي أوجدت خصائص تخطيطية ثابتة فيها جعلت من تلك المدن نموذجاً أصيلاً سارت عليه مدن الفترات اللاحقة.

الفصل الثالث: خصائص الفكر الحضري في تخطيط المدن السومرية:

وفيه متابعة واسعة لخطط المدن السومرية الأولى التي تولدت عناصرها بفعل عوامل النشأة عبر المسيرة التاريخية بشكل أصيل أو تلك العناصر التي تأصل وجودها في مسيرة القرية الناضجة. وقد وردت تلك العناصر عبر مجموعة من الخصائص التي رسمت الريادة الأولى للسومريين في بناء الفكر

الحضـري المعاصـر، وأعطـت تطبيقاتـه المبـادئ الأساسـية لانبثـاق المدينـة المعاصرة.

الفصـل الرابـع: الأصـالة والتأصـل لعناصـر التخطـيط الحضـري في المستقرات البشرية الأولى (القرى الأولى وطلائع المدن السومرية):

وهو محاولـة لاستقراء معظم العناصـر الأصـيلة التـي برعـت المسـتقرات البشرية الأولى في احتوائها عبر مخططاتها وأشكالها المعمارية التي عبرت عنها مراحل تطورها، سواء تلك التي أنتجتها القرية الأولى باعتبار حضـارتها الأسـاس الذي ضـم معظم المعـالم الحضـارية، ومـن ثم تأصـل وجودهـا فـي المدن، أو تلك العناصر الأصيلة التي تولدت في المدن نتيجة عوامل نشأتها التاريخية وتطورها. وقد أثبتت التحريات والدراسات الأثرية أنها عناصر أصيلة التكوين في بيئة وادي الرافدين، وأنهـا نتـاج لشـعب واحـد هـو شـعب بـلاد الرافـدين الـذي بـدا وجـوده فـي القسم الشمالي من العراق، ولم يكن وجوده في القسم الجنوبي منه في العصور التاريخية إلا نتيجة وامتداد طبيعيين لحضارات عصور ما قبل التاريخ.

وبذلك تقدم المدينة العراقية الأولى أصالة في إيجاد العناصر الوظيفية لتخطيط مستقراتهم البشرية، وزيادة في تحقيق الفكر التخطيطي الحضري الـذي سـيظل تراثـاً خالـداً يعـيش مـع الزمـان والمكـان ليكـون مجـالاً للإلهـام مـدرباً مضـاءً يمكـن الرجـوع إليـه فـي تقيـيم كثيـر مـن الدراسـات الحضـرية والإقليمية.

ونسأل الله التوفيق.